أهمية الوقف في نشر العلم

المدرسة القادرية ببغداد أنموذجا

أ.د/ عيادة بن أيوب الكبيسي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

كلية الشريعة ــ جامعة الشارقة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فتح لعبده أبواب الخير والمبرات، ونوع لهم بفضله سبل القربات، وأتاح لهم ما يوصلهم إلى أعلى الدرجات، فمن تعذر عليه الولوج من باب، فإن أمامه أبواب كثيرة مشرعات، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، وعلى آله وأصحابه، وأنصاره وأحبابه والتابعين.

وبعد:

فما أن وقعت عيني على هذا المؤتمر المبارك (أثر الوقف الإسلامي في النهضة العلمية) حتى وجدتني مشدودا للمشاركة والكتابة في بعض محاوره، وما أن أجلت النظر في تلك المحاور ووقفت على محوره الأول: (أهمية الوقف في نشر العلم)، حتى انبثقت في ذهني فكرة الكتابة عن بعض المدارس الوقفية في تاريخ الأمة الطويل، فاستخرت الله تعالى واخترت من بين تلك المدارس المدرسة القادرية ببغداد، لتكون أنموذجا لما كانت تقدمه تلك المدارس للعلم وأهله من خدمة منقطة النظير، ويعود اختياري لهذه المدرسة المباركة إلى عدة أسباب منها:

ــ أني قد درست فيها، وحصلت منها على الشهادة الثانوية العامة، وكنت بحمد الله تعالى الأول على مدارس العراق في تلك الدورة.

ــ أن هذه المدرسة السامقة المباركة لها تاريخ طويل يمتد إلى أكثر من عشرة قرون.

ــ أن مؤسسها يعد من أبرز رجالات العلم والمعرفة، وله قدم راسخة في التربية الروحية، وأنه من أشهر العلماء الذين نشروا العلم والهدى في تاريخ المسلمين الطويل، وقد شهد له بالصلاح والعلم والتقى كل من ترجم له أو عرفه من أهل العلم بلا استثناء.

ــ أنها لم تزل بحمد الله تعالى عامرة قائمة، رغم عوادي الزمن التي مرت بها، ومع كل ما لحقها من تدمير وتخريب، أو اعترض طريقها من معوقات.

ــ ثم لعل من المناسب أن أقول: إن محبتي لمؤسس هذا المدرسة المباركة قد غرس في نفسي منذ الصغر، ولعل هذا هو السبب الذي دفعني بقوة للكتابة في هذا الموضوع.

فتوكلت على الله تعالى ورسمت خطة البحث فجاءت في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة: وهي هذه.

التمهيد: تعريف الوقف ومشروعيته.

المبحث الأول: أهمية العلم والتربية.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: فضل العلم ومكانة العلماء.

المطلب الثاني: خطر الفصل بين التربية والعلم.

المبحث الثاني: دور المدارس الوقفية في نشر العلم.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: نبذة عن المدارس الوقفية بوجه عام.

المطلب الثاني: دور المدرسة القادرية ومزاياها في نشر العلم.

الخاتمة: وفيها أهم ما أسفر عنه البحث من نتائج.

ثم ذكر بعض التوصيات.

والله تعالى وحده هو الموفق والمستعان.

أ.د/ عيادة بن أيوب الكبيسي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

كلية الشريعة ــ جامعة الشارقة

التمهيد

تعريف الوقف لغة:

قال ابن فارس رحمه الله تعالى في تعريف الوقف: الواو والقاف والفاء: أصل واحد يدل على تمكث في شيء ثم يقاس عليه. منه وقفت أقف وقوفا. ووقفت وقفي، ولا يقال في شيء أوقفت إلا أنهم يقولون للذي يكون في شيء ثم ينزع عنه: قد أوقف. قال الطرماح:

جامحا في غوايتي ثم أوقف ت رضا بالتقى وذو البر راض

وحكى الشيباني: " كلمتهم ثم أوقفت عنهم " أي سكت. قال: وكل شيء أمسكت عنه فإنك تقول: أوقفت، وموقف الإنسان وغيره: حيث يقف[1].

ويقال وقف الدار ونحوها: حبسها في سبيل الله، ويقال: وقفها على فلان، وله[2].

ولدى تتبع معاجم اللغة نجد أن معنى الوقف يدور على الحبس والتمكث في الشيء، فهو مصدر وقف الشيء يقفه وقفا إذا حبسه، يقال: وقفت الشيء أقفه وقفا، ولا يقال: أوقفت إلا على لغة رديئة[3].

واصطلاحا:

تعددت تعاريف الفقهاء رحمهم الله تعالى للوقف ما بين مبسوط ومختصر، فبينما نجد من يعرفه بأنه: حبس المملوك وتسبيل منفعته مع بقاء عينه ودوام الانتفاع به، من أهل للتبرع، على معين يملك بتمليكه أو على جهة عامة، في غير معصية تقربا إلى الله تعالى [4]، نجد من يختصر ذلك فيقول: هو تحبيس الأصل، وتسبيل الثمرة[5]،

---

[1] ينظر مقاييس اللغة 135/6 مادة وقف.

[2] انظر المعجم الوسيط 1050/2 مادة وقف.

[3] انظر النهاية في غريب الحديث 216/5، وانظر القاموس المحيط 296/3 مادة وقف.

[4] انظر التوقيف بمهمات التعاريف للمناوي ص371.

[5] انظر بحث: "دور الوقف في دعم البحث العلمي" للدكتور عبد الله بن محمد العمراني، وهذا مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (حبس الأصل، وسبل الثمرة) أخرجه النسائي في المجتبى باب حبس المشاع من

وبعد أن ذكر الجرجاني أن الوقف في اللغة هو الحبس قال وفي الشرع:

حبس العين على ملك الواقف والتصدق بالمنفعة عند أبي حنيفة فيجوز رجوعه، وعندهما حبس العين عن التمليك مع التصدق بمنفعتها، فتكون العين زائلة إلى ملك الله تعالى من وجه[6].

وفي المعجم الوسيط:

والموقوف عند الفقهاء: العين المحبوسة إما على ملك الواقف، وإما على ملك الله تعالى[7].

وذكر الدكتور أحمد الحداد أن المالكية يخالفون الجمهور في جواز تأقيت الوقف بمدة معينة، حيث قال: إلا أن السادة المالكية يزيدون قيد (مدة ما يراه المحبس..)، لإفادة أن الوقف يجوز فيه التأقيت مدة معينة، وخالفهم في ذلك غيرهم وهم الجمهور حيث ذهبوا إلى اشتراط التأبيد فيه[8]

ولعل أوضح التعاريف التي ذكرها الفقهاء أخصرها، إذ من المعلوم أن التعريف كلما كان أخصر كان أولى، ما دام موفيا بالغرض[9].

ونلحظ أن العلاقة بين التعريف اللغوي والاصطلاحي ظاهرة.

كتاب الأحباس 193/6-194، وابن ماجه في كتاب الصدقات باب من وقف 801/2، وأصله في الصحيحين من قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه: (إن شئت حبّست أصلها وتصدقت بها)الحديث .. أخرجه البخاري في كتاب الشروط باب الشروط في الوقف 260/3، ومسلم في كتاب الوصية باب الوقف 1255/3-1256.

[6] انظر التعريفات ص 328 مادة الوقف، وقال في المغني ــ كتاب الوقوف والوصايا 185/8: وذهب أبو حنيفة إلى أن الوقف لا يلزم بمجرده، وللواقف الرجوع فيه إلا أن يوصي به بعد موته فيلزم، أو يحكم بلزومه حاكم، وحكاه بعضهم عن علي وابن مسعود وابن عباس، وخالفه صاحباه فقالا كقول سائر أهل العلم.

[7] انظر المعجم الوسيط 1050/2 مادة وقف.

[8] انظر دور الوقف في العملية التنموية ص 12.

[9] وهو ما رجحه الدكتور العمراني في بحثه المشار إليه سابقا.

مشروعية الوقف:

لم يختلف الفقهاء في مشروعية الوقف، وذلك لتضافر النصوص من الكتاب والسنة على مشروعيته، ولذا فقد كان بابا من أبواب الفقه في جميع المذاهب، ولسنا بصدد بسط الأدلة على مشروعيته، ولذا فسنكتفي بالإشارة إلى بعضها على النحو الآتي:

أما الكتاب: فهو ما يشير إليه قوله تعالى: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم}[10]، ونظائرها من الآيات الدالة على الإنفاق في وجوه الخير، والمرشدة إلى التسابق إليه والتنافس فيه، وهي كثيرة مبثوثة في ثنايا الكتاب العزيز.

وأما السنة: فالأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا كثيرة، نكتفي أيضا بذكر طرف منها، فمن ذلك:

ــ الحديث الذي سبقت الإشارة إليه، وهو ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أصاب عمر أرضا بخيبر فأتى النبي صلى الله عليه وسم يستأمره فيها فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضا بخيبر لم أصب قط مالا أنفس عندي منه، فما تأمرني فيها؟ فقال: إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها، غير أنه لا يباع أصلها ولا يبتاع منها، ولا يوهب ولا يورث، قال: فتصدق بها عمر في الفقراء وذوي القربى والرقاب وابن السبيل والضيف، ولا جناح على من وليها أن يأكل منها، أو يطعم صديقا بالمعروف غير متأثل فيه، أو غير متمول فيه[11].

ــ قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) [12]، وقد فسر شراح الحديث الصدقة الجارية بالوقف، وهي العين التي يحبسها ليتم الانتفاع بريعها وغلتها، قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: وفيه دليل لصحة أصل الوقف، وعظيم ثوابه.[13].

---

[10] سورة آل عمران آية: 92.

[11] متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

[12] أخرجه مسلم برقم 1631 في كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته 71/11.

[13] انظر شرح الإمام النووي رحمه الله تعالى 71/11.

وعليه عمل الصحابة رضي الله تعالى عنهم فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:

لم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ذو مقدرة إلا وقف، ذكره ابن قدامة في المغني وقال:

وهذا إجماع منهم، فإن الذي قدر منهم على الوقف وقف، واشتهر بذلك فلم ينكره أحد فكان إجماعا.[14]

وممن نقل الإجماع أيضا الإمام القرطبي رحمه الله تعالى حيث قال: فإن المسألة إجماع من الصحابة، وذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وعائشة وفاطمة وعمرو بن العاص وابن الزبير وجابرا كلهم وقفوا الأوقاف، وأوقافهم بمكة والمدينة معروفة مشهورة[15].

[14] انظر المغني 186/8 كتاب الوقوف والوصايا.

[15] الجامع لأحكام القرآن 339/6 تفسير سورة المائدة آية: 103.

المبحث الأول

أهمية العلم والتربية.

لا يخفى ما للعلم والعلماء من مكانة ومنزلة في الإسلام، كما أن مدح العلم والثناء على العلماء في الإسلام معلوم، والآيات الكريمة في ذلك مبثوثة في الكتاب الكريم، ولا يفوتنا أن نذكّر هنا بآية فذة، قد جاء فيها الثناء على من عمل بالعلم على الإطلاق، حيث يقول تعالى: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب}الزمر/ 9، فنزّل يعلمون منزلة اللازم أي المتصفون بصفة العلم، وفيه إشارة ــ كما يقول ابن عاشور ــ إلى أن الإيمان أخو العلم، لأن كليهما نور ومعرفة وحق[16].

وفيها دلالة ظاهرة على أن الله تعالى مدح جميع العلوم النافعة بلا استثناء، وبذلك تكون العلوم كلها مقربة إلى الله تعالى ونافعة، ما دام صاحبها مراعيا لآداب طلب العلم، وملتزما بالصدق والإخلاص فيه، ومن هنا كان المزج بين التربية والتعليم أمر لازم لتهيئة الطالب إلى مراعاة هذه الجوانب النبيلة، وتربيته على هذه المعاني السامية.

وقد جاء هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: فضل العلم ومكانة العلماء.

المطلب الثاني: خطر الفصل بين التربية والعلم.

ولنبدأ في المطلب الأول وهو:

المطلب الأول: فضل العلم ومكانة العلماء.

بما أن الإسلام هو الدين الخاتم الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، كما قال تعالى : {ورضيت لكم الإسلام دينا}المائدة/3، وأنه هو الدين المعتبر الذي لا يقبل الله تعالى من أحد يدين بسواه، {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}آل عمران/ 85، لذا كانت أول كلمة من كتابه العظيم، الذي هو أعظم هدية للعالمين: {اقرأ باسم ربك الذي خلق}العلق/1، فكانت ذات دلالة عظيمة على مكانة العلم، واهتمام الدين الجديد به، واحتفائه

[16] انظر التحرير والتنوير 23/348-349.

بأهله، ثم نزل بعدها: {ن. والقلم وما يسطرون}القلم/ 1، فكان فيها إشارة إلى ما في تقييد العلم ونشره، من منافع وفوائد، حيث أقسم الله تعالى بالقلم وسيلة ذلك التقييد، وما يكتب فيه.

ثم توالت الآيات الكريمة المنوهة بفضل العلم ومكانة العلماء، منها هذه الآية العظيمة المنوهة بمكانتهم وعظيم شرفهم، حيث يقول تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}فاطر/28، ومنها الآية الأخرى التي أشارت إلى رفعتهم وعلو منزلتهم بقوله تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}المجادلة/11، وغيرها من الآيات الكثيرات.

ومثلها ما يخرج من مشكاة النبوة، فيما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في سنته القولية والعملية من أحاديث كثيرة، امتلأت بها كتب الصحاح والمسانيد والسنن كما لا يخفى.

ولنختر في هذا التذكير العاجل، طرفا منها، إذ هي المستند والحجة في تقرير كل قضية، واعتماد كل مسألة.

ولنكتف بحديث واحد منها، لما فيه من دلالة واضحة بينة، ذلك الحديث الجامع الذي وضح فيه النبي صلى الله عليه وسلم مكانة العلم وشرف العلماء أيما توضيح، ولا غرو فهو المعصوم الذي أوتي جوامع الكلم صلى الله وسلامه عليه.

فعن كَثِير بن قيس قال: كنت جالسا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق، فجاءه رجل فقال: يا أبا الدرداء جئتك من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما جئت لحاجة، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له كل من في السموات والأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ولكن ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[17].

---

[17] أخرجه أبو داود ــ واللفظ له ــ برقم 3641 في كتاب العلم ــ باب: في فضل العلم، والترمذي في باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة برقم 2682، وابن ماجه في المقدمة باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم برقم 223 وغيرهم، و انظر شرحه في بذل المجهود في حل سنن أبي داود للمحدث الكبير الشيخ خليل السهارنفوري 11/373-376.

المطلب الثاني: خطر الفصل بين التربية والعلم.

هذا موضوع هام جدا، لما يترتب عليه من مسألة خطيرة، قد تؤدي إلى خلاف المقصود، فلعل أكثر النكبات التي تحل بالناس إنما كانت نتيجة عدم المزج بين التربية والتعليم.

ذاك أن العلم وحده مهما بلغ من التقدم والتطور، لا يمنح السكينة في النفس، ولا الطمأنينة في القلب، ومن ثم لا يؤدي إلى الحياة الهادئة المستقرة، والعيش الهنيء الرغيد، ما لم تكن ثمة أخلاق نبيلة، وآداب سامية، وقيم شريفة، وإن نظرة إلى ما يجري في دنيا الناس اليوم، كفيلة بأن تكشف عن هذا السر الدفين، فالحق يقال إن التقدم العلمي الهائل الذي وصلت إليه البشرية اليوم، لو كان مرتبطا بتلك الأخلاق ومتشحا بتلك الآداب، لكان حال الدنيا اليوم غير ما عليه من هذا الظلم والدمار والتخريب والضياع.

ومن هنا نلحظ سر التغاير بين دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام وإجابة الله تعالى له، فإنه عليه السلام حين دعا قال: {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم}البقرة/ 129، حيث قدم العم على التزكية، لكن الله تعالى قدم في إجابة دعوته التزكية على العلم في ثلاث آيات حيث قال: {كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون}البقرة/ 151، ومثلها في سورة آل عمران[18] وفي سورة الجمعة[19].

إن النفس البشرية ما لم تنضبط بتلك الأخلاق النبيلة وتتحلى بتلك الآداب السامية، فإنه لا يمنعها عن ممارسة الظلم مانع، ولا يحول بينها وبين البغي حائل، وسيكون العلم بيد تلك النفس المتحللة من الأخلاق والآداب آلة تدمير وبطش واستبداد، كما هو مشاهد في حياة الناس اليوم.

---

[18] وهي قوله تعالى في الآية 164: {لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة إن كانوا من قبل في ضلال مبين}.

[19] وهي قوله تعالى في الآية 2: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة إن كانوا من قبل في ضلال مبين}.

لقد (صارت القطيعة بين الدين والعلم في أوربا وباء سلب الحضارة الحديثة الطمأنينة والاستقرار، ووضعها برغم تقدمها العلمي المعاصر في مأزق خطير).[20]

وللأسف أن يسري ذلك على مناهج التعليم في كثير من بلاد المسلمين، وقد أشار إلى هذا الدكتور إبراهيم العدوي محذرا من هذا الخطر المحدق بأمتنا، ومبينا المنهج الصحيح الذي ينبغي أن تسلكه حيث قال:

(وإذا كانت برامج التعليم في البلاد الإسلامية في نهضتها الحديثة قد تأثرت إلى أبعد مدى بالقطيعة المزعومة بين الدين والعلم، هذه العدوى التي تعتبر من أمراض المدنية الأوربية الحديثة، فإنه آن لنا أن ننظر إلى هذا الموضوع بمنظار الإسلام، وأن نزنه بميزان علمي موضوعي لا تختل فيه حقائق الأمور، بحيث نجعل من الدين والعلم وجهين لعملة واحدة، ومن حقائق العلم وحقائق الدين كلا متكاملا لا تصح حياة البشر إلا حين تهتدي بهديها، وحينئذ تعرج الروح في مراقي الكمال بقدر ما يقبس العقل من نور المعارف)[21].

وإذا كان هذا الكلام قد قيل منذ أمد بعيد، فحري بنا أن ننتبه إلى ما يراد لأمتنا اليوم من إبعاد عن هذا المنهج التعليمي الصحيح، وأن تتضافر الجهود لصياغة المناهج التعليمية صياغة تتسم بالجمع بين التربية والتعليم، فلا ينبغي أن تبقى علوم الفلك والكيمياء والطب والهندسة ونحوها بمنأى عن علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث ونحوها، ولا يليق بأساتذة تلك العلوم أن يغفلوا جوانب التربية والتوجيه السليم.

وحبذا لو تم تأسيس كليات تجمع بين التخصصين، لتخرج من يجمع بين هذه العلوم وعلوم الشريعة، كأن يكون طبيبا فقيها مثلا، لما لذلك من أهمية بالغة لاسيما في البت ببعض القضايا التي تمس الحاجة إليها، كإثبات البنوة عن طريق عينة الدم [22]، وإفطار المريض في رمضان، أو إجراء عملية التلقيح الاصطناعي مثلا [23].

---

[20] انظر التعليم الإسلامي في الماضي وميراثه الحاضر ص 35 للدكتور إبراهيم أحمد العدوي.

[21] السابق ص 36.

[22] انظر بحث: (إثبات البنوة عن طريق القيافة وعينة الدم الحديثة) للدكتور أحمد رميض رحمه الله تعالى.

[23] مما أذكر به هنا أنا لما كنا في مؤتمر الاجتهاد في القرن الحادي والعشرين الذي عقد في الجامعة الإسلامية بماليزيا سنة 1429هـ الموافق 2008م، اقترحت مثل هذا الاقتراح فأخبرني بعض الأساتذة هناك

فإذا تم ذلك مع التحلي بما سبقت الإشارة إليه من الأخلاق والآداب، أمنا من التحايل غير المشروع، أو ما يسمى بالخيانة الطبية.

بأن هذا قد عمل به في بعض ولايات ماليزيا، فقلت هذا شيء حسن، وحبذا لو تم مثل ذلك في الجامعات العربية.

المبحث الثاني: دور المدارس الوقفية في نشر العلم.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: نبذة عن المدارس الوقفية بوجه عام.

حفل تاريخ الإسلام على مر العصور وتعاقب الدهور، بالعناية بالعلم لما سبق أن أشرنا إلى شيء من ذلك في المبحث السابق، ومن مظاهر تلك العناية إنشاء المدارس المتنوعة، التي كان لها الأثر البالغ في النهضة العلمية والتقدم المعرفي الذي شهدته أمة الإسلام إبان عصورها الزاهرة.

ولم تقتصر تلك المدارس على نمط معين من العلوم، بل لم تقتصر على علوم الشريعة فحسب، إنما كانت تعنى إضافة إلى علوم التفسير والحديث والفقه بعلوم الطب والهيئة والتزكية، وقد ذكر صاحب كتاب الدارس في تاريخ المدارس عددا كبيرا من تلك المدارس، ففي دور القرآن الكريم ذكر:

ــ دار القرآن الكريم الجزرية، دار القرآن الكريم الدلامية، دار القرآن الكريم الصابونية، وغيرها.

وفي الحديث ذكر:

ــ دار الحديث الأشرفية[24]، دار الحديث الحمصية، دار الحديث الفاضلية، دار الحديث الناصرية، وغيرها.

كما ذكر مدارس المذاهب الفقهية المتبعة، فعقد فصلا لمدارس الشافعية، وآخر لمدارس الحنفية، وثالثا لمدارس المالكية، ورابعا لمدارس الحنابلة.

وعقد فصلا لمدارس الطب، وذكر من ذلك:

ــ المدرسة الدخوارية، المدرسة الدنيسرية، المدرسة اللبودية النجمية.

إضافة إلى ما فصله عن دور المساجد والجوامع في نشر النهضة العلمية[25] .

---

[24] قام الدكتور محمد مطيع الحافظ بوضع كتاب مفصل عن هذه الدار بعنوان: (دار الحديث الأشرفية بدمشق ــ دراسة تاريخية توثيقية) طبعته دار الفكر المعاصر ببيروت.

وقد تخرج في تلك المدارس علماء أجلاء لا يحصى عددهم، أسهموا إسهاما ملحوظا في تقدم الحضارة الإسلامية، على كافة المستويات العلمية.

ولم تزل هذه المدارس مستمرة في العالم الإسلامي، مع تفاوت في الكثرة والجودة والتنوع، وقد ذكر الدكتور عبد الله بن سليمان الغفيلي عددا من المدارس من أشهرها:

(المدرسة الصالحية بمصر، والمدرسة السعودية ببغداد، والمدارس الأربع بمكة المكرمة التي بناها سليمان القانوني لتدريس مذاهب أهل السنة الأربعة، ووقف المكتبات ووقف الوسائل التعليمية من أحبار وأوراق ودفاتر وأقلام وخرائط وغيرها)[26].

ومثل ذلك مدارس بغداد الشهيرة في الدولة العباسية، مثل: المدرسة المستنصرية، والمدرسة النظامية، والمدرسة الشرابية، والمدرسة المرجانية[27]، والمدرسة العصمتية وغيرها.

وقد أوقفت على هذه المدارس أوقاف كثيرة، أسهمت إسهاما كبيرا في نمو النهضة التعليمية فيها وازدهارها.

وبما تقدم ومن خلال النظر في تاريخ الوقف في البلاد الإسلامية يتبين لنا أن من الأوقاف ما أوقف على مؤسسات التعليم بأنواعها المختلفة، ومن ذلك مؤسسات القضاء أو ما أوقف على العلماء، كالأوقاف التي تم تخصيصها لتأسيس المدارس والكليات خصوصا الكليات العلمية كالطب والصيدلة سوءا في العصر العباسي أو العصر العثماني، كذلك الأوقاف التي تم تخصيصها لدعم العلماء وتحقيق استقلاليتهم عن الدولة، والحفاظ على كرامتهم ونزاهتهم، والأوقاف التي أنشئت لتحقيق وظيفة العدل من خلال الحفاظ على نزاهة القضاء واستقلالها.

ومن هنا كان الوقف ضمانة أساسية للحفاظ على هذه القيم على اختلاف العصور، وتنوع النظم السياسية وتعددها، والملاحظ المدقق لتاريخ الحضارة الإسلامية يجد أنها نهضت على

---

[25] ينظر كتاب الدارس في تاريخ المدارس.

[26] بنظر بحثه: (أهمية الوقف في تعزيز التقدم المعرفي).

[27] وقد يسر الله تعالى لنا الدراسة فيها بعض السنوات، عند شيخها الجليل عبد الله الصوفي رحمه الله تعالى، وتقع في جامع مرجان صوب الرصافة، على شارع الرشيد ببغداد، قرب شارع الشورجة الشهير.

هاتين المؤسستين العلم والعدل، ونجد كذلك أن الوقف هو الذي أوجد هاتين المؤسستين وحافظ عليها[28].

[28] ينظر بحث: (مصارف وقف الشيخ عبد اللطيف جميل لدعم التعليم والمعرفة)، للدكتور نصر محمد عارف.

المطلب الثاني: دور المدرسة القادرية ومزاياها في نشر العلم.

وقد اخترنا من بين تلك المدارس الكثيرة، المدرسة القادرية ببغداد، لما ذكرته في المقدمة، ولعلاقتي الوثيقة بهذه المدرسة المباركة، ولما لها من منهج فريد يجمع بين العلم والتربية، الأمر الذي ألمحنا إليه في المبحث الأول.

وأحببت أن أقسم هذا المطلب إلى الفروع الآتية:

الأول: نبذة عن مؤسس هذه المدرسة وشيخها[29]:

مؤسس هذه المدرسة هو الشيخ الرباني الإمام العالم العامل أبو محمد ويعرف بأبي صالح عبد القادر بن موسى الجيلاني أو الجيلي، ويلقب بمحي الدين، ينتهي نسبه من أمه إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

ولد في جيلان وراء طبرستان سنة 471هـ، ثم انتقل إلى بغداد قبل بلوغه العشرين وذلك عام 488هـ واستقر بها، فدرس على شيوخها مختلف العلوم من الفقه والحديث والأدب والتصوف وغيرها، حتى أصبح علما يشار إليه في العلم والمعرفة، وخبيرا بأمور التزكية وطب القلوب، وعلما من أعلام التصوف البارزين، وكانت له قدم راسخة في الوعظ والإرشاد، فأقبل عليه الناس حتى كان مجلسه يضم سبعين ألفا، وقد نفع الله تعالى به خلقا كثيرا، فأسلم على يديه عدد كبير من غير المسلمين، وتاب على يديه كثير من عصاة المسلمين، وله مصنفات نافعة.

ومن أبرز ما يميز الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى تهذيبه للتصوف مما علق به من المخالفات والبدع، لما كان له من قدم راسخة في الفقه والتصوف، ولذا فقد (حرص على ربط المريدين بالكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، والابتعاد عن الفلسفة وعلم الكلام والتفسيرات الصوفية الخيالية التي تعتمد على مجرد الخواطر والإلهامات)[30].

---

[29] انظر ترجمته في: المنتظم 173/18، البداية والنهاية 419/16، سير أعلام النبلاء 439/20، وتاريخ الإسلام (حوادث وفيات 561–570) ص 86، مرآة الجنان 374/3–366، فوات الوفيات 373/2، الذيل على طبقات الحنابلة 290/1، هدية العارفين 596/1 وغيرها.

[30] ينظر كتاب هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ــ الباب الرابع الخاص بالشيخ عبد القادر ــ ، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني.

وتأمل وصيته لابنه عبد الوهاب حيث يقول فيها: (عليك بتقوى الله العظيم وطاعته، ولا تخف أحدا غيره ولا ترجوه، وكل الحوائج كلها إلى الله عز وجل واطلبها منه، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه)، ومن وصيته لابنه عبد الرزاق: (أوصيك بتقوى الله عز وجل وطاعته، ولزوم الشرع وحفظ حدوده، واعلم يا ولدي أن طريقتنا هذه مبنية على الكتاب والسنة، وسلامة الصدر، وسخاء اليد، وبذل الندى، وكف الجفاء، وحمل الأذى، والصفح عن عثرات الإخوان، والنصيحة للأكابر والأصاغر، وترك الخصومة إلا في أمور الدين، واعلم يا ولدي أن حقيقة الفقر أن لا تفتقر إلى من هو مثلك، وحقيقة الغنى أن تستغني عمن هو مثلك ...)[31].

وله كلام طيب في الفتح الرباني وغيره، من ذلك قوله: (يا قوم اتبعوا ولا تبتدعوا، وافقوا و لا تخالفوا، أطيعوا ولا تعصوا، أخلصوا ولا تشركوا، وحدوا الحق عز وجل وعن بابه فلا تبرحوا، سلوه ولا تسألوا غيره، استعينوا به ولا تستعينوا بغيره، توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره ...) [32].

وقد أفاض العلماء في ترجمته، وأثنوا عليه، وأفردوه بالتأليف [33]، قال ابن كثير: (وانتفع به الناس انتفاعا كثيرا، وكان له سمت حسن، وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه زهد كبير، وله أحوال ومكاشفات .. وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار، قدس الله روحه، ونور ضريحه) [34]، وقال ابن رجب: (ظهر الشيخ عبد القادر للناس، وجلس للوعظ بعد العشرين والخمسمائة، وحصل له القبول التام من الناس، واعتقدوا ديانته وصلاحه،

---

[31] انظر الزاوية القادرية ص 97- 98.

[32] ينظر الفتح الرباني ص 191-192، وقوله في ص 53: (يا قوم اعرفوا الله ولا تجهلوه، وأطيعوا الله ولا تعصوه، ووافقوه ولا تخالفوه، وارضوا بقضائه ولا تنازعوه، واعرفوا الحق عز وجل بصنعته، هو الخالق الرازق، الأول الآخر، والظاهر والباطن، هو القديم الأول، الدائم الأبدي، الفعال لما يريد {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون}، وقوله في موضع آخر: (طر إلى الله عز وجل بجناحي الكتاب والسنة، ادخل عليه ويدك في يد معلمك صلى الله عليه وسلم).

[33] من هذه الكتب: قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ العلامة محمد بن يحيى التادفي الحنبلي، من أعلام القرن التاسع الهجري ــ طبع في القاهرة سنة 1356هـ.

[34] انظر البادية والنهاية 16/419-420.

وانتفعوا به وبكلامه ووعظه، وانتصر أهل السنة بظهوره، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته، وهابه الملوك فمن دونهم)[35].

وقال الشيخ محمد الشريف الإدريسي: (لا يكاد يختلف في فضله وعلو مقامه اثنان من جميع طبقات الناس علما وولاية وزهدا وصبرا واحتمالا وكرما وحالا وعقلا ومعرفة، إلى غير ذلك من صفات الكمال، وقد ألف الناس في مناقبه وشمائله وخوارقه، إلى غير ذلك من أموره تآليف عديدة، في منح شتى ومقاصد متنوعة، كل على حسب معرفته واستعداده، مع الاعتراف بالعجز والتقصير عن مبلغ ما يستحقه مقام ذلك الشيخ الكبير، وقد ذاع صيته في أطراف المعمور، وانتشر ذكره، وكثرت أتباعه والمنتسبون إليه، وامتدت طريقته

فكأنه من صيته متوطن من سائر الأقطار كل مكان[36]

وتوفي ببغداد سنة 561هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

الثاني: نشأة المدرسة القادرية.

المدرسة القادرية نسبة إلى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي سبق أن أشرنا إلى شيء من ترجمته، وتعود نشأتها إلى القرن الخامس الهجري، وذلك بعد أن ذاع صيت الشيخ وعلت مكانته وظهرت كراماته، فأقبل الناس عليه من كل صوب وحدب ينهلون من معين علمه ويتأدبون بآدابه ويسلكون طريقته، ففوض إليه قاضي بغداد الشيخ أبو سعيد المخرمي التدريس في مدرسته بباب الأزج شرقي بغداد التي كانت على المذهب الحنبلي، فأدارها الشيخ عبد القادر على المذهبين الشافعي والحنبلي اللذين كان الشيخ عميد علمائهما وشيخ جماعاتهما بالعراق بدون منازع، فكان الشيخ أول من درس بها كافة العلوم، ولما كانت تلك المدرس ة لم تتسع لتلك الحشود العظيمة من الطلبة والمستمعين، اضطر أن يدرس خارجها فصار يجلس عند سور بغداد مستندا إلى رباط له هناك كان يتعبد فيه أول أمره، فلما رأى الناس ذلك تبرعوا بدورهم وأراضيهم لتتسع مدرسة الشيخ، وبذل الأغنياء أموالهم في بنائها وعمارتها[37].

---

[35] انظر الذيل على طبقات الحنابلة 199/2.

[36] من كلمة له في تقريظ كتاب: الزاوية القادرية ص 11.

[37] انظر طبقات ابن رجب 191/1.

وبذلك اتسعت مدرسة الشيخ، وأصبحت قادرة على استيعاب عدد كبير من الطلبة والدارسين، وفاقت الكثير من المدارس البغدادية الأخرى، وصارت من المعاهد العلمية المعدودة في العالم الإسلامي، يقصدها العلماء والطلبة على حد سواء[38].

ثم أعيد بناؤها مرة ثانية بعد وفاة الشيخ رحمه الله تعالى، وزيد في اتساعها بما حبس عليها من الأمكنة والدور والأراضي، حتى غدت من أعظم المدارس في بغداد حينئذ إن لم تكن أعظمها.

وقد بدأ الشيخ التدريس في مدرسته منذ عام 521هـ حتى عام 561هـ عام وفاته رحمه الله تعالى ورضي عنه، أي ما يقرب من نصف قرن من الزمان.

وقد ذكر الإمام الشطنوفي اللخمي في كتابه بهجة الأسرار[39]: أن الشيخ عبد القادر كان يدرس يوميا ثلاثة عشر فنا من العلوم يأتي في مقدمة ذلك: علم التفسير والحديث والمذهب والخلاف والأصول والنحو، ويقرأ عليه القراءات السبع، وعلوم التصوف، حتى قصده الشيوخ والعلماء والطلبة والعوام على حد سواء[40].

وبعد وفاة الشيخ تولى التدريس فيها ولده الشيخ أبو محمد عبد الوهاب، وكان قد درّس فيها نيابة عن والده في حياته ثم استقل بالتدريس بعده حتى وفاته عام 593هـ.

ثم خربت هذه المدرسة ضمن ما خرب في بغداد من المعاهد والزوايا وغيرها إبان غزو التتار، وسقوط بغداد عاصمة الدولة العباسية وذلك سنة 656هـ.

وقد بقي الحال كذلك إلى أن جاء السلطان سليمان القانوني في عهد الخلافة العثمانية، فبعد أن طرد التتار واستولى على بغداد عام 923هـ أمر بتعمير هذه المدرسة، وقد ذكر السائح التركي محمد ظلي أسوليا أن السلطان سليمان القانوني خصص لهذا البناء مقدارا كبيرا من المال،' قدر بأكثر من مائة ألف دينار في ذلك الوقت، وأنشأ إلى جانب ضريح الشيخ عبد

---

[38] انظر الآثار الخطية ص 9.

[39] وهو كتاب حافل في ترجمة الشيخ عبد القادر، ولكن في بعض ما فيه نظر، فيقال إن مؤلفه دس على الشيخ عبد القادر ما لا يصح إسناده إليه كما ذكر ابن حجر فليتنبه، علما بأنه قد حقق رسالة ماجستير للطالب جمال الدين بن فالح الكيلاني بإشراف الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف.

[40] انظر بهجة الأسرار ومعدن الأنوار ص 158.

القادر رحمه الله تعالى دار ضيافة للفقراء والعجزة والأرامل والمساكين أهل البلد ومن حولهم[41].

وقد كان لسلاطين بني عثمان عامة إجلال ومحبة وتقدير للشيخ عبد القادر وأولاده وذريته، وقد تعهدوا مدرسته بالعمارة والعناية مدة حكمهم، وبسبب هذه العناية وهذا العطف الكبير الذي أظهره سلاطين آل عثمان وملوكهم نحو أبناء الشيخ رضي الله عنه عاد إلى بغداد وإلى سكناها والإقامة بها كثير من أبناء الشيخ بعد خروجهم منها في حادثة التتار المشؤومة[42].

ولم تزل هذه المدرسة قائمة حتى أيامنا هذه، يشرف عليها أبناء الشيخ نقباء الشرفاء القادريين، يعتنون بها ويهتمون بشؤونها العامة وبأوقافها.

وبداخل الضريح خزانة كبيرة محتوية على نفائس الكتب والمصاحف المذهبة، المخطوطة منها والمطبوعة، مهداة من الملوك والأمراء والعلماء وآل الشيخ ونقبائهم في كثير من العصور، وقد وضع نواة هذه المكتبة الشيخ رضي الله عنه وأولاده من بعده، حتى نمت واتسع نطاق ما تحتويه من الكتب النفيسة في شتى العلوم والفنون، وزاد فيها العديد من أهل العلم منهم العالم المقرئ النحوي ابن عساكر، المعروف بالبطائحي الضرير (ت 572هـ ببغداد)، ذكره في معجم الأدباء وقال: وقف كتبه على مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلي[43].

وقد نظمت هذه المكتبة عام 1354هـ من جديد، حيث بني لها جناح خاص بها فبلغ ما تحتويه من الكتب والنفائس الخطية والمطبوعة زهاء ثلاثين ألف كتاب، ويقصد المكتبة ويرد عليها للمطالعة والاستفادة والكتابة عشرات الآلاف من وارد وباحث سنويا[44].

وقد افتتحت المكتبة بمبانيها الجديدة وقاعاتها سنة 1967م، وما زالت تؤدي مهمتها الجليلة في خدمة البحث العلمي، ورفع مستوى الثقافة، والعناية بالعلوم الإسلامية والعربية عامة حتى يومنا هذا[45].

---

[41] انظر العراق بين احتلالين 33/4.

[42] انظر كتاب الزاوية القادرية ص 29.

[43] انظر معجم الأدباء 1820/4، والسابق ص31 وفيه السخوي بدل النحوي وهو خطأ طباعي.

[44] انظر الآثار الخطية في المكتبة القادرية 27/1، وهو كتاب ضخم يقع في خمس مجلدات، ذكر فيه مخطوطات نفيسة في التفسير وعلوم القرآن، والحديث والفقه والنحو والتصوف وغيرها.

الثالث: مزايا المدرسة القادرية:

لم تكن المدرسة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى مدرسة علمية فحسب، ولكن كان لها هدف سام ومقصد نبيل، قد يختلف عن كثير من مدارس العلم المعروفة، وقد لخصها الدكتور ماجد عرسان الكيلاني في هذه النقاط الثلاث، وهي:

1 - تخريج القيادات العلمية والروحية والفكرية، اللازمة للعمل الإسلامي، ونشر رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علما وحالا.

2 - تنسيق العمل الإسلامي بين مدارسه المختلفة (توحيد جهود الدعاة).

3 - وضع مناهج العلم التربوي والدعوي، ورسم خططه وبرامجه.

بهذه الأهداف السامية قاد الشيخ عبد القادر نشاطات هذه المدرسة مدة نصف قرن من الزمان، حتى صار لها امتداداتها وصلاتها في العالم الإسلامي كله[46].

إن مزج التعليم بالتربية الذي ألمحنا إليه في المبحث الأول، كان من أبرز سمات هذه المدرسة، فقد (اعتمد على مناهج التعليم الشرعي المنظم، والتربية الروحية المنظمة، وعلى الوعظ والدعوة بين الجماهير على اختلاف طبقاتهم، واستقبل في مدرسته أبناء النازحين الذين فروا من وجه الاحتلال الصليبي للبلاد الشامية، ثم قام بإعدادهم ثم إعادتهم إلى مناطق المواجهة الدائرة تحت القيادة الزنكية، واشتهر من هؤلاء ابن نجا الواعظ، الذي أصبح فيما بعد مستشار السلطان صلاح الدين الأيوبي السياسي والعسكري، والحافظ الرهاوي، وموسى ابن الشيخ عبد القادر، وموفق الدين ابن قدامة صاحب كتاب المغني، وأحد مستشاري صلاح الدين، وقريبه الحافظ عبد الغني المقدسي رحمهم الله أجمعين)[47].

الرابع: المدرسة القادرية اليوم.

---

[45] السابق، وانظر الزاوية القادرية ص 31.

[46] انظر كتابه هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ص 177 فما بعدها ــ الباب الرابع (انتشار حركة الإصلاح والتجديد، والمدارس التي مثلتها، وقد خصص أغلبه للشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وبيان تعاليمه وإصلاح التصوف، كما تحدث عن مدارس أخرى متعددة (طبعة الإمارات العربية المتحدة).

[47] السابق.

سبقت الإشارة إلى أن المدرسة القادرية لم تزل عامرة حتى أيامنا هذه، ولكن هل بقيت تسير وفق الأهداف التي خطط لها الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، أم أن الأمر قد اختلف ولو بعض الشيء عما كان عليه سابقا؟ هذا ما سنحاول الكشف عنه في هذه الدراسة.

لقد أكرمنا الله تعالى بفضله بالالتحاق في هذه المدرسة المباركة، والتخرج بها، وذلك بالحصول على شهادة الثانوية العامة[48].

وقد سعدنا بالتتلمذ على شيخها الكبير العلامة عبد الكريم المدرس رحمه الله تعالى، والاتصال ببقية الشيوخ من مثل الشيخ عبد القادر حتانة المعروف بعبد القادر الخطيب، العالم الصالح، وخطيب جامع الإمام الأعظم الشهير، والشيخ كمال الدين الطائي مدير المدرسة القادرية حينئذ وغيرهم، رحم الله الجميع وجزاهم عنا خير الجزاء.

علما بأن ابتداء دراستنا الشرعية كانت في مدرسة عثمان أفندي في كبيسة، على يد شيخنا عبد الستار ملا طه الكبيسي [49]، وهو قد درس في المدرسة الآصفية الشرعية في مدينة الفلوجة، على يد شيخها الشيخ عبد العزيز سالم السامرائي[50]، رحم الله تعالى الجميع برحمته الواسعة، والملاحظ أن المدرسة القادرية تحاول أن تسير وفق الأهداف التي رسمها مؤسسها رحمه الله تعالى ، ونستطيع أن نقول إن ذلك لم يكن محققا وفق تلك الصورة، وإن كان قد تحقق منه قدر لا بأس به، وهو في الحقيقة لا يعود إلى المناهج المقررة، بقدر ما يعود إلى من يتولى تطبيق تلك المناهج من الأساتذة والموجهين، ولذا فهو قد يختلف من واحد لآخر.

---

[48] وقد كنت بحمد الله تعالى وفضله وتوفيقه الأول على مدارس العراق، وكان ذلك عام 1971م.

[49] هو شيخنا الفاضل أول من قرأنا العلم الشرعي على يديه، توفي في حادث حريق سنة 1385هـ الموافق 1965م رحمه الله تعالى ورضي عنه.

[50] ناشر العلم على ضفاف الفرات، هكذا كان لقبه، توفي بعد مرض ألم به في مدينة سامراء سنة 1973م، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وأحب هنا أن أتحدث بشيء عن شيخنا عبد الكريم رحمه الله تعالى، أبرز شيوخ المدرسة القادرية، الذي كان يراعي إلى حد كبير المنهج الفريد الذي كانت تقوم عليه أسس هذه المدرسة، ومن كانت تربطني به علاقة وثيقة، استمرت حتى بعد حصولي على الدكتوراه وعملي في الجامعات[51]، فأقول:

هو شيخنا العلامة عبد الكريم بن محمد المشهور بالمدرس ــ رحمه الله تعالى ــ، من مشاهير علماء الأكراد في العراق، ولد في شهر ربيع الأول في موسم الربيع سنة 1323 هــ، في قرية تكية على مقربة من مركز ناحية خورمال في شمال العراق.

وكان تحصيله العلمي وفق الطريقة القديمة في التعليم، فبعد التمييز بدأ بالدراسة وختم القرآن الكريم وبعض الكتب الشرعية، ثم تجول في المدارس وحلقات العلم على عادة أهل زمانه، وقد أكسبته هذه الجولة العلمية غزارة المادة ودقة الفهم في اللغة العربية، وعمق المعرفة في أسرار البلاغة، كما يظهر ذلك في مصنفاته الكثيرة.

ويعد شيخنا ــ رحمه الله تعالى ــ من المكثرين في التأليف في زماننا، وكتبه في ذلك متنوعة، وعدد أجزائها ومجلداتها متفاوتة، فمنها ما هو في مجلدات كبار، ومنها ما هو دون ذلك، وهي متنوعة كما ذكرنا غير أن للعلوم العقلية النصيب الأوفر منها، لقدرات الشيخ الفائقة بهذا الخصوص، ومن أشهر تلك الكتب:

مواهب الرحمن في تفسير القرآن[52].

جواهر الفتاوى في ثلاث مجلدات.

تفسير باللغة الكردية في تسع مجلدات.

نور القرآن ــ نظم ونثر في تاريخ القرآن وتجويده وما يتعلق بذلك.

الوسيلة في شرح الفضيلة، وهو كتاب كبير في أصول الدين

---

[51] وقد كان يهدي إلي بعض كتبه، ويطرزها بمثل قوله: قرة عيني المحبوب الشيخ عيادة بن أيوب، جزاه الله تعالى عنا خير الجزاء.

[52] كتبت عن منهجه في هذا التفسير في كتابي: (دراسات في التفسير ومناهجه)، وهو معد للطبع بإذن الله تعالى.

المفتاح في المنطق، ومثله الورقات والعزيزة والوجيهة كلها في المنطق.

مفتاح الآداب في النحو.

نور الإسلام، يبحث في بعض آداب وأمور اعتقادية، لا بد للمسلم من الإطلاع عليها[53].

وتلاميذ الشيخ لا يكادون يحصون عددا، وقد نفع الله به خلقا كثيرا، وله دروس ممتدة صباح مساء في المدرسة القادرية، يحضرها عدد كبير من مختلف البلاد.

ولم يزل الشيخ يتمتع بالصحة ــ مع تخلل الأمراض ــ حتى وفاته، وقد تجاوز المائة [54]، حيث توفي يوم الثلاثاء 1426/7/25هـ الموافق 2005/8/30م رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وغفر له وأسكنه فسيح جناته، وجمعنا معه في عليين آمين.

ولم تزل المدرسة القادرية عامرة بحمد الله، وإن لم تكن بالصورة التي رسمت لها في أول نشأتها، وقد تخرج بها جمع لا يكادون يحصون عددا من أهل العلم الذين كان لهم دور بارز في النهضة العلمية، ومنهم الآن من يحتل مراكز علمية مهمة في الجامعات اِلإسلامية وغيرها.

الخامس: العمل على إحياء هذه المدارس.

---

(53) انظر ترجمته: في كتابه الحافل (علماؤنا في خدمة العلم والدين) ص 324–332، وفيها سرد بعض كتبه في اللغتين العربية والكردية.

(54) وكان قد ولد سنة (1323هـ)، فيكون عمره مائة وثلاثة أعوام، فصدق فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خيركم من طال عمره وحسن عمله)، وللشيخ رحمه الله تعالى كرامة لعل من المفيد أن نذكرها، وذلك: أنه لما كان في شبابه شعر بألم في قلبه ثم أغمي عليه، فرأى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال له: ما بك يا عبد الكريم؟ قال: أشكو قلبي يا سيدي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا شيء فيه، ومسح على قلبه بيده الشريفة صلى الله عليه وسلم، فلما استيقظ لم يجد أيّ ألم، يقول الشيخ: ومنذ ذلك الوقت لم أشك من قلبي أبداً، وفي أثناء فحصه وقد بلغ مائة عام تعجب الطبيب وقال: يا شيخ إن قلبك قلب شاب!! فقال له الشيخ رحمه الله تعالى: إن قلبي لا يهرم ولا يمرض، وقصّ عليه القصة. أقول: هذه الحادثة تذكرنا بقصة الصحابي الجليل قتادة رضي الله تعالى عنه حين قلعت عينه، فوضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانها، فلم يشك منها من مرض ولا رمد ولا غيره، وكانت أحسن عينيه، حتى إذا رآه الرائي عرف أنها العين التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبهذه المناسبة أود أن أوجه دعوة إلى أهل الخير والإحسان في هذه الأمة، أن ينهضوا إلى إحياء هذه المدارس الوقفية، وأن يجتهدوا في إنشائها ودعمها، وحبس شيء من ممتلكاته م عليها، فهذا وأمثاله من أعمال البر من أفضل التجارات الرابحة مع الله جل في علاه، وخير ما صرفت فيه الأموال، ولا ريب أنه من العلم النافع الذي يستمر نفعه ولا ينقطع خيره.

ولا يخفى أن مجتمعنا الإسلامي بحاجة ماسة لاسيما في الظروف الحالية التي تمر بها أمتنا، إلى مثل هذه المدارس التي تجمع بين التربية والتعليم، وتقوم على أسس سليمة في التزكية والإحسان، لتخرج علماء يمكن أن يقودوا المجتمع إلى شاطئ الأمن والسلام، وفق منهج الوسطية الذي جاء به الإسلام، بعيدا عن الإفراط أو التفريط.

إن هذه المدارس ستكون نواة صالحة للكليات والجامعات، وهي خير رافد لها، لما تخرج من عناصر مهمة، ذات قدرات متميزة في العلم والسلوك المستقيم.

الخاتمة

نسأل الله تعالى حسنها

وبعد هذا التطواف السريع في بيان ما للوقف من أهمية بالغة في نشر العلم، أذكر أهم ما توصل إليه البحث من نتائج في نقاط محددة على النحو الآتي:

1 -لا يختلف أحد في مشروعية الوقف، بدلالة الكتاب والسنة، و ما كان عليه عمل الصحابة رضي الله عنهم.

2 -العلوم كلها ممدوحة في الإسلام إذا خلصت النية وحسن القصد.

3 -العلم وحده لا يمنح الطمأنينة والسعادة، بل قد يؤدي إلى خلاف ذلك.

4 -إن الفصل بين التعليم والتربية مخالف للمنهج التعليمي الصحيح.

5 -لقد كان للمدارس الوقفية المتنوعة دور بارز في النهضة العلمية التي شهدها العالم الإسلامي في تاريخه الطويل.

6 -يعد الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى أول مؤسس للمدرسة القادرية ببغداد.

7 -ولما أجمع الناس على صلاحه وتقواه، أوقفوا على مدرسته كثيرا من ممتلكاتهم.

8 -وقد كان من أبرز رجال الإصلاح، الذين هذبوا التصوف مما علق به من بدع ومنكرات

9 -من أهم مزايا المدرسة القادرية: اعتماد مناهج التعليم الشرعي المنظم، والتربية الروحية المنظمة.

10 - لم تزل المدرسة القادرية عامرة، تؤدي دورها رغم عوادي الزمن التي مرت بها، ويعد شيخنا العلامة عبد الكريم المدرس رحمه الله تعالى من أبرز رجالاتها في العصر الحاضر.

التوصيات

1 -الاجتهاد في إحياء المدارس الوقفية، وحث أرباب الثروات على حبس بعض ممتلكاتهم عليها، مما سيكون له أثر فاعل في بناء الحضارة الإسلامية والفكر المستنير.

2 -إعادة صياغة المناهج التعليمية، صياغة هادفة تجمع بين التربية والتعليم، بما يحقق منهج الوسطية الذي جاء به الإسلام الحنيف.

3 -العمل على إنشاء كليات ومعاهد تجمع بين التخصصات الشرعية وغيرها.

4 -دعم المنح الدراسية لمن لا يستطيع مواصلة دراسته من ذوي الحاجة والعوز.

5 -الإفادة من أنماط الوقف ونماذجه في العصور السابقة، واتخاذ الخطوات الجادة في سبيل إعادة هيكلة الأوقاف لأداء رسالتها من جديد، وفق مقتضيات العصر ومتطلباته.

هذه صورة مسجد الشيخ عبد القادر والمدرسة القادرية من الخارج

وهذه الصورة من الواجهة

فهرس أهم المراجع

ــ الآثار الخطية في المكتبة القادرية، للدكتور عماد عبد السلام رؤوف ــ مطبعة الإرشاد ــ بغداد ــ الطبعة الأولى سنة 1394هـ / 1974م.

ــ أهمية الوقف في تعزيز التقدم المعرفي، بحث للدكتور عبد الله بن سليمان الغفيلي.

ــ البداية والنهاية، للإمام الحافظ اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774هـ) ــ تحقيق الدكتور عبد الله التركي ــ دار هجر للطباعة والنشر ــ الطبعة الأولى سنة 1419هـ/1998م.

ــ بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني، للشيخ اللخمي الشطنوفي المصري (ت 713هـ) ــ تحقيق جمال الدين فالح الكيلاني.

ــ تاريخ العراق بين احتلالين، للمحامي عباس العزاوي ــ مطبعة بغداد بالعراق سنة 1935م.

ــ التعليم الإسلامي في الماضي وميراثه الحاضر، بحث للدكتور إبراهيم أحمد العدوي ــ المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي ــ الطبعة الأولى سنة 1403هـ/1983م.

ــ التعليم في الإسلام ماضيه وحاضره، للدكتور محمد سلام مدكور ــ المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي ــ الطبعة الأولى سنة 1403هـ/1983م.

ــ التوقيف على مهمات التع اريف، للإمام عبد الرؤوف المناوي (ت 1031هـ) ــ تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ــ دار الفكر ــ بيروت.

ــ الجامع لأحكام القرآن، للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت 671هـ) ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت.

ــ دار الحديث الأشرفية بدمشق ــ دراسة تاريخية توثيقية، للدكتور محمد مطيع الحافظ طبعته دار الفكر المعاصر ببيروت ــ الطبعة الأولى سنة 1421هـ /2001م.

ــ الدارس في تاريخ المدارس تأليف الشيخ عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت 927هـ) ــ تحقيق إبراهيم شمس الدين ــ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى سنة 1410هـ / 1990م.

ـ الذيل على طبقات الحنابلة، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب (795هـ) ـ تحقيق الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ـ جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
ـ الزاوية القادرية عبر التاريخ والعصور، للشيخ عبد الحي القادري ـ مطابع الشويخ بتطوان ـ المغرب ـ الطبعة الأولى سنة 1407هـ / 1986م.
ـ علماؤنا في خدمة العلم والدين، لشيخنا العلامة عبد الكريم محمد المدرس (ت1426هـ) ـ دار الحرية ـ بغداد ـ الطبعة الأولى سنة 1403هـ / 1983م.
ـ الفتح الرباني والفيض الرحماني، تأليف سيدي عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ) ـ دار الريان للتراث بمصر.
ـ القاموس المحيط، للعلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبدي (ت 817هـ) ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
ـ معجم الأدباء، للإمام **شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت626هـ)** ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت الطبعة الأولى سنة 141هـ/1993م.

ـ معجم مقاييس اللغة، للإمام أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ) ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار الجيل ـ بيروت سنة 1411هـ/1991م.

ـ المعجم الوسيط، مجموعة من الأساتذة ـ مجمع اللغة العربية ـ القاهرة سنة 1392هـ /1972م.

ـ المغني، للإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت 620هـ) ـ تحقيق الدكتور عبد الله التركي والدكتور عبد الفتاح الحلو ـ دار عالم الكتب ـ الرياض.

ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت 606هـ) ـ تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه سنة 1383هـ / 1963م.

ـ وقف الشيخ عبد اللطيف جميل لدعم التعليم والمعرفة، للدكتور نصر محمد عارف.

ـ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ طبعة سنة 1414هـ / 1994م، وله طبعات أخرى.